



ليست السجون السورية أماكن لاحتجاز حرية المعتقلين عقابا لهم على القيام بأعمال مخالفة للقانون، وتنفيذا لحكم قضائي، الهدف منه حماية القانون الذي ينظم العلاقات بين الأفراد في مجتمع متعدد، ولا تعبّر عن استراتيجيات فعالية تسعى من خلالها السلطة السياسية، عن طريق القهر والتعذيب وكسر إرادة المعارضين لها، إلى انتزاع معلومات إضافية، وإكراه المعتقل بالعنف على الاعتراف بسيادتها المطلقة والتسليم لها، ومن ثم ردع النشطاء عن المثابرة، وإخراجهم من حسابات المجتمع وإخراج المجتمع من حساباتهم. إنها تمثل، كما يروي وائل الزهراوي في شهادته/ روايته "لها أخفينا الموتى" (دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، 2019). حالة استثنائية، الهدف الأول لها القضاء على أرواح المعتقلين الجاحدين قبل القضاء على أجسادهم. نحن هنا أمام حالة استثنائية للقتل المقطّر الذي لا يهدف إلى تغيير اعتقدات الأفراد الضحايا، أو حتى إلى كسر إرادتهم، ولكنه يمارس على ضحايا مكسورين ومستسلمين أصلا حكم عليهم سلفا بالإعدام. إنه الموت تحت التعذيب الذي يصبح معه الموت نفسه خلاصا لا يمكن نواله، كما في جحيم الأديان السماوية التي لا يكاد فيها جسد المدان يكمل احتراقه، حتى يستعيد حياته ليحترق ثانية إلى ما لا نهاية.

(1)

يروي وائل، في شهادته، بلغة مفجوعة قصصا عن الأهوال التي كان شاهدا عليها وموضوعها معا، والتي تتحدى الخيال. يكتب مثلا في إحدى شهاداته: "أشار السجان إلى عشرات الجثث الملقاة في الممر، وقال: أريد قبل الصباح أن تكون كل هذه الجثث على يمين المدخل الرئيسي، أرصفوهم أربعة أربعة. ثم مشى خطوات قليلة، وفتح غرفة كادت رائحتها أن تسقطنا

جميعاً. ابتعد بعدها مغادراً، وهو يقول: وكل الجثث التي في هذه الغرفة أيضاً، إن طلعت الشمس ولم تحملوها فستكونون جميعاً جثثاً جديدة...". حين اقتربت خطواتنا منها، أوشكتنا أن نختنق من رائحة الجثث... عشرات الجثث المكومة فوق بعضها، منها ما هو من دون أطراف، وكثيرون من دون عيون وأفواه ومنها ما هو مبتور الأصابع، وآخرون من دون أظافر وقد تساقطت جلودهم حتى ظننت أننا حين حملهم سيفتقون بين أيدينا، والبعض كان ممزق الصدر والأمعاء ومقلوع الأنداء، وثلة منهم كانوا محروقين حروقاً بالغة، أنتجت حفراً في أجسادهم، وغياب ملامحهم تماماً. جلست بقرب الدود نبكي وننتحب عليهم، ونحن ننظر إلى هذا الصرح من الشهداء المجهولين". .. "نهضنا نخشى تسارع الوقت، فالصبح قريب، وبدأنا نخرج الجثث ونتقيأ كلما رفعنا واحدة من فوق أخرى، الدود كان يسكن محاجر عيونهم، والعفن غطى ملامحهم حتى تشبهوا فأمسوا جمِيعاً يحملون وجه الوطن المُسجَى بينهم... أحصينا عدد الجثث، كانوا سبعة وأربعين شهيداً، نصفهم من دون ملامح تميزهم، والبقية وهبوا وجوههم للهاتفات التي كانت ترنو نحو الآتي القريب". ص 42-43.

وعن الموت جوعاً: "يسألوننا كل يوم عن عدد الجثث، وبحسب العدد المتبقى يرمون لنا أرغفة الخبز، لكل خمسة معتقلين رغيفاً واحداً". .. "صباح اليوم التالي، بعد أن أخرجنا جثث رفاقنا جلسنا نقسم ثلاثة أرغفة من الخبز ونحن تسعه عشر معتقلين، أربعة منا أصبحوا على شفير الموت، شحبت وجوههم وغارت عيونهم وعزفوا عن الطعام...". هكذا خطرت لأحد المعتقلين لا يسلم المعتقلين المنذورين للموت البطيء المتعدد الأشكال والأزمان سوى جثة واحدة كل يوم، حتى يحتفظوا بحصة المتوفين من الخبز. ولكن لم تمر أيام قليلة حتى "لاحظ المساعد أننا حين يفتح الباب نقف جميعاً ووجوهنا للحائط كالمعتاد، لكن باتجاه حائط محدد واحد. في ذلك اليوم، فتح المساعد الباب وأمرنا أن نخرج جثث رفاقنا الذين توفوا البارحة". صرخ المساعد "قل لماذا رائحة الجثث مختلفة عن باقي الزنازين، ولماذا تقفون كلام مقابل هذا الحائط؟...". مررت ثوانٍ، وأنا أنتظر الموت كيف سيكون طعمه، هل سيكون مؤلماً أكثر من التحقيق؟ ما الذي سي فعله بي، هل سيحرقني ويقتلن عيني. ولاحظت أمامي آلاف الأشياء، وكأنني لست هناك ولم أعد أرى أي شيء".

لن يتأخر درس الحرق كثيراً، فلم تمض أيامٌ حتى "سمعت المساعد - يروي وائل - يقول: أشعلوا الشمعة، فأصابتنـي حالة دوار وانهيار تام". كان التعذيب بالشمعة الذي لا أحد يعرف لماذا وقع على عبد الحي، يعني أنه بعد أن يخلعوا ثياب الضحية، يربطونه عارياً على كرسي من الحديد من دون سطح، ويشعلون تحته، في المنطقة بين الجهاز التناسلي والمؤخرة، شمعة وينتظرون. "وتبدأ الشمعة بإحرق تلك المنطقة المليئة بالأعصاب واللحم الطري، وينبدأ الصراح يشق كل صمت هذا العالم الرخيص، والشمعة رغم كل توصلتنا لا تتوقف عن أكل اللحم الذي يتقطّر كالدهن في حالة الشواء".

"عندما أحرق عبد الحي، في المرة الأولى، أغمي عليه ثلاث مرات. وهذا ما أغضب المساعد، فضربه على رأسه بكل الدبابة، حتى عميت عينه اليمنى". وفي المرة الثالثة التي اقتادوه إلى الحرق، "كان جسده مملوءاً بالترّفات، وظهره ليس عليه سوى بقايا لحم هنا وهناك. وكان قد فقد كثيراً من وعيه". وفي مساء اليوم التالي، عندما أعادوه إلى زنزانتنا كان في غيبوبة كاملة. رموه على الأرض وذهبوا. بعد برهة صحا. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. كنت ممدداً بقربه. أمسكت يديه وكانت الدموع هي حروف الكلمات. همسـت بأذنه: تماـسك أخيـاهـ. فأـوـمـأـ لي بـرأـسـهـ عـدـةـ مـرـاتـ وـعـيـنـاهـ نـصـفـ مـفـتوـحـتـينـ. صـارـ بـعـدـ قـلـيلـ يـصـرـخـ وـيـنـتـحـبـ، هـمـسـتـ أـنـيـ سـأـرـىـ مـاـ يـؤـلـمـهـ وـكـانـتـ الفـاجـعـةـ التـيـ مـاـ زـالـتـ تـمـرـ أـمـامـ عـيـنـيـ حـتـىـ الـيـوـمـ. كانـ اللـحـمـ بـيـنـ فـخـذـيـهـ مـخـتـفـيـاـ تـامـاـ، وـثـقـبـ كـبـيرـ جـداـ بـيـنـ مـؤـخـرـتـهـ وـأـعـضـائـهـ التـنـاسـلـيـةـ يـنـزـ دـمـاـ وـدـهـنـاـ وـبعـضـ قـطـرـاتـ بـيـضـاءـ لـسـتـ أـدـريـ مـاـ هـيـ. وـيـمـكـنـ لـلـإـنـسـانـ أـنـ يـدـخـلـ يـدـهـ كـلـهـ فـيـ ذـلـكـ الثـقـبـ الـكـبـيرـ...". اقتربـتـ مـنـهـ وـضـمـمـتـهـ إـلـيـ. كانـ وـتـبـرـزـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـ، وـمـنـ دـوـنـ إـرـادـةـ مـنـهـ فـاـخـتـلـطـ كـلـ ذـلـكـ دـاـخـلـ الثـقـبـ الـكـبـيرـ...".

بهمس لي اقتربت منه أكثر فقال: لا تتركني لا تتركني، أولادي، سلم على أهلي، لا تتركني يارب ساعدني. وراح يكررها عشرات المرات. ارتجف صوتي، وأنا أعيد عليه لا تخف لن أتركك أبداً، لن أتركك طالما أنا حي. والحقيقة لم أكن أعرف أنني حي أم ميت". .. "كانت عينه اليمنى أيضاً تنزف بشدة. ثم تقيناً قطعة من الدم بحجم نصف كف اليد، ثم تقيناً مرة أخرى قطعاً من الدم وهو يبكي ويختنق وينزف من كل مكان في جسده. أظافر رجله كانت قد سقطت منذ زمن، لأنه كان في زنزانة مستنقع "قطاع الإفراديات". "في الليل، كانت تأتيني نوبات حمى نتيجة التهابات جسدي وجروح رجلي. غفوتو وبداي تحيطان يد عبد الحي".

وفي قصة ثانية عن الطفل كانان الذي اقتيد مع والديه إلى التعذيب: قال المساعد لجلوازته "اسمعوا، أريد ان يصل صوته إلى أمه في المبني القديم. فراحوا يضحكون، وبدت خيالاتهم على الجدران وهم يتنافسون على افتراس بقية أب و طفل يطل من شرفات الموت .. تقدم أحدهم، ووقف فوق رأس الطفل وظهره للحائط، وشد على رأس الطفل، فثبته تماماً بين قدميه، وأسقط جمرتين من جمرات النرجيلة المشتعلة على ظهره فجار الطفل وأطلق صرخة مزقت صمت الكون .. وأخذ لحم الطفل يحترق، ويصدر ذاك النصيص الذي يعلو حين يشوى اللحم". "تضاحك أحدهم، وقال: سيدى هذا الصغير احترق، فأجابه الممسخ اللعين: خذ وأطفئه. وأعطاه إبريق الماء، الذي كان يغلي فوق الموقد، فصببه على ظهر الطفل دفعة واحدة. وعاد الطفل على وقع عذاب الحرير يعيد ترتيب الكون بنحبه وصراخه.. وأخذ ينتفض ويبكي بظهيره المسلح وجده المحترق ثم أغمي عليه". وبعد العودة إلى الزنزانة، في مساء ذلك اليوم "بدأ الطفل يصحو، وفي أول لمحه فتح فيها عينيه وشاهد أباه بكى وشهق وتقى، وهو ينزع من رأسه وأنفه وقدمه. نظر إليه والده، وقال: كانان كيف أنت، كانان يا ولدي، يا ضوء عيني، يا حبيبي. والطفل يغلق عينيه ويفتحهما. بعد ساعات رجف عدة مرات ثم ازدادت وتيرة أنفاسه كأنه يختنق. حاولنا فعل أي شيء، لكنه بعد قليل أسلم الروح ومضى".

في قصة أخرى، يتحدث مؤلف "لها أخفينا الموتى" عن حنا: "من بين كل أولئك الأبطال الذين رأيتهم هناك، أسر قلبي شاب لم يكمل الثانية والعشرين، وهو يحملني أسيوعاً كاملاً للمراحيض على ظهره، وينهض كالجبل الأشم. شهور الجوع لم تؤثر فيه كبقية المعتقلين، كان فولاذي الجسد، صنديداً حقيقياً. إنه حنا، حنا الذي يقرأ معنا الفاتحة على أرواح الشهداء، ثم يرسم الصليب على صدره. إنه حنا، ذاك الفارس الذي كان يقول للمعتقلين المحترضين تشاهدوا تشاهدوا وهو يذكر اسم يسوع.. حمل عشرات المعتقلين على ظهره إلى المراحيض، والمساعد الممسخ كان يقول له: ستسقط يوماً يا حنا. منذ أيام قليلة، خرج حنا يحمل معتقلًا كهلاً. وفي طريق العودة، انزلقت رجله وسقط بين أقدامهم. كنت على بعد خطوتين منه، تجمّدنا جميعاً وحانَت ساعة الموت. اجتمع المسعورون حوله، وهو يضحكون ويقولون: وقعت أخيراً، يا حنا. وهو قضيب الحديد على أذنه، كي لا يحاول النهوض، ثم علا الكفر والصياح وهم يحرقونه بالكتاب. شكلوا دائرة حوله. تركوا كل شيء، واتفقوا على قتله في ذاك الصباح. ضربوه عدة ضربات بكل الطائرات على رأسه، فبدأ يغيب عن الوعي، ثم صاح أحدهم انشروه وسنرى كيف سيكون رجلاً". وكانوا يقصدون بالنشر تعليق المعتقل كالثياب على حبال الغسيل.

"كانت هناك أنابيب حديدية تخرج من أحد جدران الممر، لتدخل في الجدار المقابل لها. كنا نحسبها أنابيب للصرف الصحي. رفعوا حنا إليها، ثم فتحوا له يديه، وربطوهما كل واحدة باتجاه على شكل الصليب، ثم شدّوا الجنائزير حتى التصقت يداه، والتفتتا تماماً حول الأنابيب. ثم قفلوا الأصفاد بين يديه وبين الأنابيب مرة أخرى. وبهذا أمسى ملتحماً تماماً به. ثم فجأة تركوه يلوح في الفراغ، وراحـت الجدران تتشقق من عويل صرـاخـه، فـالـأـنـبـوبـ يـحـتـكـ بـقـوـةـ هـائـلـةـ بـلـحـ إـبـطـيـهـ، لـأـنـهـ أـمـسـىـ مـعـلـقاـ مـنـ مـفـاصـلـ أـكـتـافـهـ فـقـطـ، فـيـنـفـرـ لـحـ إـبـطـيـهـ، وـيـنـكـشـطـ جـلـدـهـ تـحـ ضـغـطـ وزـنـ جـسـدـهـ، وـهـوـ يـتـأـرـجـحـ فـيـ الـهـوـاءـ".

"لم يكن ذاك كل شيء. أخذوا يضربونه بالكلبات والقضبان الحديدية على بطنه وفخذه، ويتعتمدون إصابته على أعضائه التناسلية. وبين كل دقيقة وأخرى، يدفعونه كي يلوح أكثر في الهواء، فتتمزق دفعه جديدة من لحم إبطيه، حتى وصلت إلى مفاصله. سمعنا جميعا صوت تكسير عظامه وانفصلت أكتافه عن جسده وهو يئن، وصدى بكائه يهتك أهلة المآذن ووجوه الصليبان. ضربوه بالقضبان الحديدية على رأسه، حتى أغرق دمه أماكن خطواته، وهو يعدو حاملاً أوجاع الآخرين. في صباح اليوم التالي، كان هنا ما يزال معلقاً هناك ميتاً. حين مررت بقربه، شعرت أن مسيحاً جديداً صلب هناك. ليس ليمحو عذابات البشرية، بل لأجل الحرية. استشهد هنا، القديس هنا، وسيبقى اسمه نصل الإباء الذي يقطر شرفاً مادام الوطن هناك".

أما ذاك الشاب الثلاثيني الذي رموه في الزنزانة الجماعية مكمم الفم، فقد قضى بطريقة من الصعب تصور أكثر شناعة منها، مستخدمين الأسلال الشائكة بعد غرسها بطريقة شيطانية داخل جسم المعتقل، حتى يموت نزفاً. كانوا يجلسون المعتقل على كرسي خشبي، بعد أن يكونوا قد كبلوا يديه وعصبو عينيه، ثم يأتون بالأنابيب التي تستعمل في البيوت لتوصيلات المياه، ويدخلونها في فمه، حتى تصل قريباً من معدته، وهو يختنق بصراخه. وحين تبدأ عيونه تنزف، يعرفون أن الأنابيب وصل إلى الحد المطلوب، ثم يدخلون داخل ذاك الأنابيب الأسلال الشائكة التي تكون لها مئات النتوءات القاتلة، ويستمرون في دفعها، حتى يبدأ المعتقل بلفظ دم معدته، وهو لا يستطيع أن يصرخ، ولا أن يستجد. ثم يسحبون الأنابيب من معدته، ليبقى السلك الشائك عالقاً من معدته حتى فمه. ومع أول حركة يقوم بها المعتقل، بعد أن يتركوه، تنفرس أشواك السلك في داخله، من أعلى حلقة حتى أدنى معدته، وهو يموت ألف مرة بصمتٍ أبدي عميق". وكانوا فوق ذلك "يضربونه وهم يضحكون ويقولون له إهتف الآن، اهتف للحرية الآن، كن رجالاً واهتف"

(2)

لم يكن الانفلات في الوحشية والعنف سلوكاً عفويًا لكلاب حراسةٍ دربوا عليه، لصالح معلمهم، ولا نتيجةً أخطاء ارتكبها أفراد تمرسوا في التعذيب وصار "التجويد" فيه، والمبرأة في إزالته بأقصى الأساليب الوحشية بالمعتقلين الضحايا، معيار تفوق بعضهم على الآخر. إنه لا ينفصل عن الوظيفة الجديدة التي أنيطت بالنظام الاعتقالـي، السياسي والمدني، الذي تقوم بخدمته فروع أمنية، وسجون تقليدية، وغرف تعذيب لمليشيات متعددة، في سياق الحرب الشاملة التي صمم النظام القائم على خوضها لوضع حد لثورةٍ شعبيةٍ بدت منتصرة بكل الحسابات. هكذا تغيرت وظيفة السجون ومناهج عملها إذا صح التعبير، فلم تعد منظومات إعادة تأهيل "المنحرفين"، وتحولت من أماكن احتجاز مؤقت لمحظوظين، معارضين أو جناء مدنيين، إلى ساحةٍ إضافيةٍ لحرب الإبادة التي تجري على الساحات العديدة الأخرى، كل منها بوسائلها ومناهجها الخاصة. ومن الواضح أن المعتقلات هي التي اختصت بنوع القتل الأكثر شناعةً وقسوة، حيث تعيش الضحية موتها كل ساعة وكل ثانية على مدى أشهر، قبل أن يأتي ملوك الموت لتحقيق الخلاص.

لا تختلف مهمة سجون الموت و"رسالتها"، من حيث المبدأ، عن مهام الأساليب الأخرى للقتل، سواءً كان بالغازات الكيميائية، أو بالبراميل المتفجرة التي تستهدف المدنيين ومرافق حياتهم الحيوية، أو بحصارات التجويع والتركيع، أو بالهجمات العسكرية التقليدية ومخلفاتها من المجازر الجماعية. تكمن خصوصيتها فقط في خصوصية ضحاياها من الناشطين الفعليين، أو المحتملين، وفي شخصنة القتل وفرينته، وتحويله إلى عبرة ودرس لا ينسى، ولا يكف عن ملاحقة الذكرة وجذلها وتغذية مشاعر الحقد والكراء والانتقام، التي لا بديل لها في إعادة إنتاج وتعزيز الدوافع والسلوكيات

العدوانية لفاعليها. هدفها الرئيسي هو "كسر العظم"، واستبعاد أي تسوية أو مصالحة أو حوار بين الفرقاء وتأكيد مبدأ: قاتلاً أو مقتولاً، أي الذهاب في العداء والعنف المرافق له إلى حالاته التي لا رجعة بعدها.

هكذا لم يقتصر دور المعتقلات السورية على فتح جبهةٍ حربيةٍ موازيةٍ ومكملةٍ للجبهات الأخرى، تخصصت بالقضاء، بالدرجة الأولى، على جيل النشطاء الذي فجر الثورة، أو ساهم في استمرارها، من خلال نشاطاته التنظيمية والفكرية والإعلامية، فحسب، ولكنه عمل بشكل أكبر على بناء جدار الحقد والعداء الدائم، وتغذية ضرع الكراهية وروح الانتقام الذي سوف يسمم حياة السوريين لحقبة طويلة قادمة.

لا أحد يعرف بالضبط عدد الذين قضوا على هذه الجبهة، فقد أحصت الشبكة العربية لحقوق الإنسان أكثر من 98 ألف مغيب، لا يعرف مصيرهم. ولكن هذا الرقم لا يقدر أعداد المفقودين الذين لم تستطع الشبكة معرفة أسمائهم. ولعل الرقم تجاوز، حسب الشهادات المتقاطعة، مئة وخمسين إلى مئتي ألف ضحية، قضوا تحت التعذيب في ما سماه منظمة العفو الدولية نفسها مسالخ بشرية. وقد قتلوا بطرقٍ وظروفٍ مشابهةٍ لتي رواها وائل الزهراوي، وقبله قيسر وأخرون. لم يعدمو ولكن مثلّ بهم حتى لا يبقى لحياة الإنسان قيمة أو معنى. وحتى تصبح حياة الإنسان، كما هي حقيقة في ظل نظام تأييد السلطة العائلية، كحياة أي حشرة أخرى.

في روايته/ شهادته، المخضبة بالألم والدم والدموع، لم يكُن المؤلف عن التساؤل عن معنى هذا التعذيب ومجانيته. لماذا تضرب الضحية حتى الموت، وتقطع أوصالها وتكسر عظامها؟ ولماذا التمثيل بجسد الضحية، وحرمان الضحايا من الطعام أسابيع حتى يموتو من الجوع، ما داموا قد حُكموا سلفاً بالإعدام؟ ولماذا الحرث على إذلالهم وإهانتهم بإجبارهم على أكل برازهم قبل قتلهم وتصفيتهم؟ ماذا يفيد التعذيب؟

الجواب: ما استهدفه نظام التعذيب "المجاني" في الواقع هو أقل عبثيةً مما يبدو في الظاهر. إنه الرغبة في عدم الاكتفاء بإعدام الحاضر، وإنما العمل على تقويض المستقبل، وترك المجتمع السوري الذي لفظ تأييده حكمه كما أراد، في العراء والفوضى الشاملة. ما لم نحفر عميقاً لاقتلاع آثار هذه الريح الهمجية المتبعة من قبور دارسة، ونعمل على إعادة بناء الجسور ومعالجة الصدمة الإنسانية وفورة المشاعر السلبية ونكشف عن مكان الجنون والعدمية، لن يكون هناك أيأمل في التعافي من هول الفاجعة، والعودة إلى تطبيع العلاقات الاجتماعية. سوف يسكن هذا الجرح الفاجر فاه طويلاً في نفوسنا، ولن يلأنمه سوى تطبيق العدالة وتعبيد الطريق نحو حكم القانون والحق والمدنية.

المصادر:

العربي الجديد